

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

.....

المعنى الإجمالي :

قوله تعالى وما أرسلنا من رسول أي قبلك يا محمد إلا بلسان قومه أي بلغتهم ، ليبين لهم أمر دينهم و ووحده اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة ؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير ؛ ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية ؛ لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - ترجمة يفهمها لزمته الحجة ، وقد قال الله تعالى : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا . وقال - صلى الله عليه وسلم : - أرسل كل نبي إلى أمته بلسانها وأرسلني الله إلى كل أحر وأسود من خلقه . وقال - صلى الله عليه وسلم : - والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار . خرجه مسلم .

(فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أي : بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق ، (وهو العزيز) (الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ،) (الحكيم) (في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك

وقد كانت هذه سنة الله في خلقه : أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم "أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة " .

ومن هذا السياق {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} أي بلغتهم التي يتخاطبون بها ويتفاهمون لحكمة أن يبين لهم ، والله بعد ذلك يضل من يشاء إضلاله حسب سنته في الإضلال ويهدي من يشاء كذلك {وهو العزيز} الغالب الذي لا يمانع في شيء أراد {الحكيم} الذي يضع كل شيء في موضعه فلذا هو لا يضل إلا من رغب في الإضلال وتكلف له وأحبه وآثره، وتكر للهدى وحارب المهتدين والداعين إلى الهدى، وليس من حكمته تعالى أن يضل من يطلب الهدى ويسعى إليه ويلتزم طريقه. ويحبه ويحب أهله وقوله: {فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} أي يَضِلُّ الْيَاسِينَ وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَى، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى الْحَقِّ {وَهُوَ الْعَزِيزُ} الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، {الْحَكِيمُ} فِي أَفْعَالِهِ فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، وَيَهْدِي مَنْ هُوَ أَهْلٌ لذلك.

وقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا متلبسا بلسان قومه) متكلما بلغتهم لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم ويدعوههم إليه وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول ولا يفهمون ما يخاطبهم به حتى يتعلموا ذلك اللسان دهرًا طويلاً ومع ذلك فلا بد أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة، ولهذا علل سبحانه ما امتن به على العباد بقوله: (ليبين أي ليوضح لهم) ما أمرهم

الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحده اللسان لأن المراد بها اللغة. عن ابن عباس أن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء. قيل ما فضله على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء (ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم) وقال لحمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فكتب له براءة من النار. قيل فما فضله على الأنبياء؟ قال: إن الله يقول (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وقال لحمد صلى الله عليه وآله وسلم (وما أرسلناك إلا كافة للناس) فأرسله إلى الإنس والجن.

وقال عثمان بن عفان: نزل القرآن بلسان قريش. وعن مجاهد مثله، وقد قيل في هذه الآية إشكال لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أرسل إلى الناس جميعاً بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة ؟

وأجيب بأنه صلى الله عليه وسلم وإن كان مرسلاً إلى الثقلين كما مر، لكن لما كان قومه العرب وكانوا أخص به وأقرب إليه، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم وبوضوحه حتى يصير فاهماً له كفهمهم إياه.

وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ} وَالْحَكْمَةُ فِي هَذَا: هُوَ أَنَّهُ إِذَا أُرْسِلَ بِلِسَانٍ قَوْمِهِ عَقَلُوا قَوْلَهُ، وَفَهَمُوا عَنْهُ، فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ النَّبِيَّ إِلَى كُلِّ الْخَلْقِ عَلَى مَا قَالَ: " بَعَثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ " وَلَمْ يَبْعَثْ بِلِسَانِ كُلِّ الْخَلْقِ ؟ .

وَالْجَوَابُ عَنْهُ: أَنَّ سَائِرَ الْخَلْقِ تَبَعَ الْعَرَبَ فِي الدَّعْوَةِ، وَقَدْ بَعَثَ بِلِسَانِهِمْ ثُمَّ إِنَّهُ بَعَثَ بِالرَّسُولِ إِلَى الْأَطْرَافِ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَتَرَجَّمَ لَهُمْ قَوْلَهُ. {لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}

- 1- هذا من لطفه تعالى بخلقه :أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم .
- 2-نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مُبَلِّغٌ عن الله منهجه؛ ومُؤَيِّدٌ بمعجزة تثبت صدقة فيما بلغ لمن أرسل إليهم. وقد حدث الحق سبحانه من قبل عَمَّا حدث للأمم السابقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه.
- 3-القرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر؛ ونزل العربية؛ لأن موهبة الأمة العربية هي النبوغ في اللغة والكلام؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات.
- 4-أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها .
- إلا إذا كان الناس في حالة، لا يحتاجون إليها، وذلك إذا قمرنا على العربية، ونشأ عليها صغیرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله، ابتداء، كما تلقى الصحابة .
- 5-الإضلال والهدى من الله بما أعد في نفوس الناس من اختلاف الاستعداد.
- 6- {وهو العزيز الحكيم} تذييل لأن العزيز قوي لا ينفلت شيء من قدرته ولا يخرج عما خلق له ، والحكيم يضع الأشياء مواضعها .
- 7-اختار أن يكون الكتاب المنزل إليهم بلغة العرب ، لأنها أصلح اللغات جمع معان ، وإيجاز عبارة ، وسهولة جري على الألسن ، وسرعة حفظ ، وجمال وقع في الأسماع ، وجعلت الأمة العربية هي المتلقية للكتاب بادىء ذي بدء ، وعهد إليها نشره بين الأمم .
- 8-الأمم السابقة لم تكن مُطَالِبَةً بأن تُبَلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم، أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فمُطَالِبَةٌ بذلك، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة.

- 9-الهداية و الضلالة بيده سبحانه ، فهو يضل من يشاء و يهدي من يشاء فإذا كان أمر الهداية مرتبطاً بمشيئته ، فلا يكون للعبد دور لا في الهداية و لا في الضلالة
- 10- الهداية إنما هي ثمار العمل الصالح، والضلال إنما هو نتاج عمل قبيح
- 11- أسند الله عز وجل الهداية والإضلال إلى مشيئته سبحانه في كثير من الآيات، منها قوله تعالى: " وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" (النحل، آية: 93).
- 12- ليست مشيئة الله للهداية والإضلال تسير جزافاً بدون حكمة.
- 13- ربط الله عز وجل كثير من الآيات بين مشيئة العبد للهدى، والضلال ومشيئته سبحانه وتعالى لهما، والله سبحانه لا يشاء إلا العدل والرحمة وهذا الذي عرفه رسل الله عليهم الصلاة والسلام.
- 14- وفي ذلك نعمة من الله واحسانٌ إلى عباده، فهو يرسل كل رسول الى قومه بلسانهم الذي يفهمونه، وليس على الرسول هدايتهم، فالله تعالى يضل من يشاء لعدم استعداده، ويهدي من يشاء لحسن استعداده، وهو العزيز الحكيم، فلا يهدي ولا يضل الا لحكمة.
- 15- لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعاً قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف: 158].
- 16- إن الناس فريقان، فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام فاتبع سبيل الرشاد وفريق رانت على قلبه الغواية والضلالة، بما اجترح من الآثام، وأوغل فيه من المعاصي والذنوب، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيئته، لا راد لقضائه ولا دافع لحكمه.
- 17- (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أي وهو العزيز فلا يغلب مشيئته غالب، الحكيم في صنعه، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة في خلقه، والنواميس التي وضعها لصالح حال عباده وضلالهم: «سَتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَن تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا» .
- والله اعلم
- وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وصحبه وسلم

فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

سلسلة تفسير القرآن العظيم الإصدار رقم (66)



فَوَائِدُ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

إِلَهِ 4

تَهْدَى وَلَا تَبَاع

وَلَا تَنْسَوْنَ مِنْ صَالِحِ دَعَائِكُمْ

أَعْدَهَا (عَزْمِي إِبْرَاهِيمَ عَزِيز)